نهضة المرأة المصرية

وكيف توجه للخير العام

للأستاذ فلكس فارس

لا تستغل نهضة المرأة ما لم توجّه الى تكوين المرأة الصالحة التثمر بطبيعتها خيراً ، إذ من العبث أن تجنى الخير نهضة مضللة

لا ينهض بالشرق إلا حضارة شرقية تستمدّ نظمها من المبادئ الأدبية العليا التى أنزلت وحياً على رسله وأنبيائه ، وإلهاماً على فلاسفته وشعرائه

فاذا ما أردنا تحديد موقف المرأة فى المجتمع ونحن نستنير بهذه المبادئ يمتنع علينا أن نسلم لها بحالة تكون فيها قوامة على نفسها مستقلة بحياتها ، لأن الحضارة الشرقية التى نتجه بحوافزنا إليها لا مقام فيها لامرأة لا مرجع لها ولا قوام عليها ؛ وما المرأة المنسلخة عن سيطرة رجل يكفلها المتصلة بالمجتمع اتصالاً مباشراً إلا بدعة فى الإنسانية أوجدتها أنانية الرجل فى الغرب لشقائه وشقائها على السواء

إن التشريع الأول الذى أيده جميع الأنبياء والمرسلين قد أورد الوضع الصحيح للأسرة الانسانية بقوله للرجل :

« بعرق جبينك تأكل خبزاً حتى تعود الى الأرض التى أخذت منها » وبقوله للمرأة : « بالأوجاع تلدين والى رجلك يكون اشتياقك ، وهو يسود عليك »

فالمرأة إذن موقوفة على حياة الاشتياق بحسب تعبير الكتاب وعلى تأمين النسل الصحيح ، فكل استثمار لها فى أية دائرة أخرى من دوائر الحياة المادية ، إنما هو خرق للناموس وجناية على العاطفة والأنسال

ان لم تكن المرأة زوجة وأماً ، فهى مرتكبة جناية أو هى ضحية جناية . وأشد شقاء من هذه السائبة ، وأوفر ضرراً بالمجتمع ، الزوجة السلوبة الخيار ، والأم المكرهة على التوليد

إن فى اشتياق المرأة وخضوعها بهذا الاشتياق نفسه لرجلها سر اعتلاء الأمم وانحطاطها ، وما جهل شعب فى التاريخ أهمية الانتخاب الطبيعى ، فتسلط رجاله على نسائه بشهواتهم لا بشوقهن دون أن تصبح المرأة فى ذلك الشعب أمة تورث مذلتها بنيها فيتشربون العبودية فى فطرتهم قبل أن يبصروا النور

إن أولى الخطوات التى تقود الشعوب الى التدهور إنما هى تجاهل أهمية المرأة ، لا من حيث تربية الطفل فحسب ، بل أيضاً وبخاصة من حيث تكوين الجنين ، وما ينهض شعب يعتقد بمبدأ الزمخشرى القائل :

وإنما أمهات الناس أوعية مستودعات وللأبناء آباء

إن الرجل الأنانى الجاهل يعتقد أنه هو وحده مستودع للحياة ، وإن بقاء النوع يتوقف على ما يحمل من جرثومة حية ، فما المرأة فى تقديره إلا الأرض يستنبتها خصبة ويتحول عنها مجدبة

وعلى هذا المبدأ الذى ينافى روح الشرع وحكمته ويناقض ما يؤيده من العلم الحديث ، يستولد الرجال النساء أطفالا كان خيراً لهم لو أنهم لم يولدوا

إن علم وظائف الأحياء قد اكتشف ذرات مستقرها خلايا الجسم وهى تعرف (بالكروموسوم) وعددها فى كل خلية إنسانية ٤٨ ، نصفها من الأب ونصفها الآخر من الأم ، لأن نطفة

صوتهم قائلين : (بيررر) فيسمعهم النسوة فى عشهن فيمدن فى التو إلى أخوات المختتنين وإلى خالاتهم ومن يحل لهم التزوج بهن من النسوة فيشرطن جلد بطونهن وأكتافهن اعتقاداً منهن بأن ذلك يمنع الألم عن الصبى . ثم تعطى القلفة لأخى المختتن الصغير فيبتلعها كى ينمو ويترعرع

وعند قبائل الكوركودون فى شمال كوينزلاندا باستراليا تخيط المرأة قلفة ابنها بخيط تضعه حول جيدها لتتقى بذلك شر الشيطان فلا يؤذى ولدها

وفى بعض بلادنا يربط الولد القلفة فى خرقة يلبسها حول عنقه إلى أن يلتئم الجرح فيلقيها فى النيل

ويمسح بعض قبائل استراليا دم الختان بورق من قلف الأشجار ثم يلقون ذلك فى البرك التى ينمو بها نبات الزنبق المائى اعتقاداً منهم بأن ذلك يقوى هذه النباتات لأنهم يتغذون بسوقها وجذورها

مأمون عبد السلام

الحياة فى الرجل وفى المرأة لا تحوى سوى ٢٤ ذرة فقط ، فيتضح من هذا أن العناية قد أرادت أن يكون المولود متبثقاً من شخصين متحدين على تواز تام بين ما ينفصل عن كل منهما لتكوين الحياة الجديدة

ويؤكد العلم أن هـذه الذرات منظمة فى الخلية على شكل سلسلة متصلة الحلقات وهى مزدوجة متقابلة فى سطحها ، وأن فى هذه الحلقات تستقر العوامل التى تنقل إلى الأبناء طوابع الآباء والأمهات

وقد عقد المتخصصون لهذه الأبحاث فصولاً بينوا فيها كيف تتغلب عناصر الارتقاء أو الانحطاط فى السلالات ، فذهبوا إلى أن كل حلقة فى العقد المزدوج تكمن فيها صحة عضو معين ، فان كانت هذه الحلقة ضعيفة فى الأب وقابلها فى الأم حلقة قوية تغلبت الصحة على المرض فيجيء الطفل سليما وإلا فينشأ معتلاً لأن الحلقة التى يرثها عن أبويه لا مناعة فيها

إن هذا المظهر المحسوس لاختلاف القوى الكامنة فى كل من الرجل والمرأة لما يفسر لنا علة التنافر والتجاذب بينهما ، فان الطبيعة الطامحة إلى الارتقاء وإصلاح ما تفسده الحياة تعمل بحوافزها الخفية متسلحة بالانتخاب الغريزى للوصول إلى أهدافها

مما لا ريب فيه ، إذن ، أن ليس كل رجل يصلح زوجاً لأية امرأة ، كما أنه ليست كل امرأة تصلح زوجة لأى رجل كان

إن الحياة تغالب الموت فى هـذا الوجود مفتشة عن أصلح المنافذ للنشوء والارتقاء ، وهذه الحياة التى خرجت من الأزل متجهة إلى الأبد إنما تهب كالعاصف الجبار على الجنسين فتلويهما لسلطانها ممتلية بالنوع فوق وهم أفراده . على أنه فى حين أن هذه الحياة تختار سبيلها بالسائق الغريزى فى النبات وفى الحيوان عاملة على تحسين مجاليها بالقضاء على الضعف الطارىء والاستبقاء على القوة الصامدة فى الجسوم ، فأنك لترى هذه الحياة فى المملكة الانسانية وهى أرقى وأشرف مجاليها تتلوى فى مسالك الشهوات المضللة والعقليات السخيفة منزلة بالتائهين أوجع الزواجر وأبلغ العبر ، وهؤلاء التائهون لا يرجعون عن غيهم فلا يشعرون على أنفسهم ولا يبالون بأنسالهم

إن الولد المختل العليل إنما هو الضحية البريئة التى تصفع الطبيعة به أوجه الرجال الفاحشين والنسوة الطامعات المضللات ، ولكن الطبيعة لا تنو دائما لتحكم الانسان ولا تهيب زجره وارغامه فتضرب عن الظهور وتمتنع عن إيجاد الضحية ، وآخر ما اكتشفه العلماء فى جامعة كولومبيا بالاستقراء بعد أن كان الفكر يفترضه افتراضاً هو التنافر بين عنصرى الذكو والأنثى فى بعض الأحوال مما يقضى بالعقم التام مع أن كلا من الزوجين ليس عقيما

وما كان الانسان ليحتاج إلى الاستقراء العلمى خلال دقائقه وذراته ليعلم أن الطباق والانسجام يؤديان إلى الارتباط المكين ، وان الشذوذ والتنافر ينشأ عنهما التدافع والافتراق ، وليس الرجل والمرأة وترين على آلة صماء يشد احدهما جواباً على قرار الآخر ، لأنه ان لم يكن هناك طباق ، فان المرأة أو الرجل المختار أو المختارة للشدّ على طبقة رفيقة ليسمعك صوت انقطاعه بدلاً من الايقاع المنشود

ليكن منشأ هذا الانسجام تناسباً بين ذرات الخلايا والعوامل كما يقول العلماء المستقرون ، أو فليكن ضعف هذه الذرات أو قوتها منسباً عن عوامل الكهارب التى تسود الخلايا بتفاعل مجهول ، أو فليكن هنالك ما يذهب إليه الروحيون من أن الخلايا والكهارب وكل ما يحوى هذا الجسم من مادة ليس إلا خيالاً لروح كامنة هى الحقيقة المستترة وأن من العبث أن يستقر فى العلم منشأ التجاذب والتدافع بتشريح هذا الخيال المادىّ ، فأننا تجاه جميع هذه الافتراضات ، نبقى دائماً أمام حقيقة لا ريب فيها وهى أن الانسان سواء أكان رجلاً أو امرأة مدفوع بالفطرة إلى طلب الرقى لنسله باصلاح ما أفسدت الحياة فى أعضائه ، وبخاصة إلى إصلاح ما تطرق إلى الصفات الأدبية من عيوب ؛ ولعلّ فى هذا بعض التفسير لسيادة الانسجام بين رجل وامرأة تخالف أشكالهما وأوضاع أعضائهما ومظاهر القوى الأدبية فيهما ، فقد لا تجد مصارعاً يعشق مصارعة ولا فيلسوفاً يغرم بفيلسوفة . ولكم وقف المفكرون مندهشين أمام امرأة فاضلة تحس بانجذاب نحو رجل عادىّ ، أو بارعة فى الجمال تندفع إلى الالتصاق برجل دميم . إن بعض العشق ينشأ عن حنان خفى فى الطبيعة يشبه عطف الطبيب المداوى على العليل المستجدى الشفاء

نورد هذه النظرية دون أن نتخذها قاعدة بالرغم من تجليها لدينا فى عديد الحوادث ، فان النقائص التى تتجه فى الازدواج إلى الزوال والعلل التى تطلب الشفاء أبعد مستقراً من أن ينالها استقراء أو تحديد ، والضعف الكامن فى أحد الناس يبقى مستتراً فيه خفياً حتى عن شعوره ، فكيف يتسنى لنا كشفه وتعيينه ؟ لذلك ورد فى الأمثال وهى حكمة الأمم : أن لا جدال فى الذوق ، وما أرى المتنبي إلا سابرا أقصى أسرار الحب إذ قال :

إلام طواعية العاذل ولا رأى فى الحب للعاقل
يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

للحب إذن وهو صلح العيوب والدافع إلى ارتقاء الانسان ناموسه الجبار ، ناموسه الصامت الهامس فى أرواح المحبين كلمتين هما دستور السعادة لكل منهما — كلمة العبرة من الماضى للرجل ، وكلمة الحذر من المستقبل للمرأة

يقول الفتى للفتاة : أحبك

فلا يرد جوابها إلا بصورة الاستفهام :

وهل ستحبنى إلى الأبد ؟

فالرجل لا يتوجه إلى المستقبل بقلبه بل يلتفت إلى الوراء ، إلى الماضى ، وهو بقسم بالوفاء والثبات ، ماداً بأبصاره إلى أعماق عينى الفتاة سابراً أقصاها ليتحقق ما إذا كان هذا الهيكل الأبدى الذى يتخذه مقاماً ومصلى لروحه ، لم يرتفع فيه صوت غير صوته ولم يحرق عليه بخور غير بخوره

هكذا تصطفى الطبيعة المحبين لاستنبات الطفل الصحيح ، وهكذا تقبض الغريزة على القلبين لتسخرهما لبقاء النوع وتسييره على مدارج الارتقاء

ولماذا خصت الطبيعة الرجل بالعبرة من الماضى والمرأة بالحذر من المستقبل ؟ لماذا وضعت الطبيعة دليل الطهر فى عين العذراء ، ودليل العفاف فى جسمها ؟ ولماذا غرست فيها هذا الخوف من تقلب الرجل وانحرافه عنها ؟

فى هذا المجال أيضاً توصل العلم إلى استجلاء حقيقة رائعة نستدل منها على منشأ هذه الغيرة وهذا الحذر ، وتلك الحقيقة هى أن الطبيعة تتجه دائما إلى الوحدة وتأنف من الشرك وتتمرد عليه ! وقد شوهدت حوادث كان فيها نتاج الزواج الثانى من المرأة أقرب إلى مشابهة أطفال الزواج الأول ، وبتعبير أوضح تحقق العلم أن امرأة يستنبت نتاجها الأول من رجل تبقى معرضة للاستمرار على الانتاج طابعة أبناءها على غرار ذلك الرجل

إن هذا الاكتشاف يبرر لدى المفكر هذه الغيرة المقدسة التى تتجلى فى الرجل الطبيعى غير الفاسد بمبادىء الاطلاق وضعف الحيوية فيه ، وهذه الحقيقة نفسها تفسر لنا هذا الحذر الغريزى فى المرأة من تخلى المحب الأول عنها ، لأن الطبيعة تتمرد فى نفسها فهى تربأ بشخصيتها أن تصبح مستقراً للشرك ، والكون بأسره يتجه إلى التوحيد فى ارتقائه

إن ناموس الحب والزواج فى الأصل إنما هو اندماج بين روحين وجسدين اندماجا حراً تحت سيطرة التجاذب المطلق من كل تضليل ، فاذا هو تم وفقاً لهذا الناموس ، يندر أن تنفصم عراه مدى الحياة

على أننا فى هذا العصر الذى سبقته أدوار عديدة استنبتت فيها النسل من التزاوج المكذوب لا يمكننا أن نحتم باستمرار الاتفاق بين عاشقين ما لم نثق أولاً من أنهما كليهما قد نشآ من زواجين ساد الحب الحقيقى فيهما ، إذ أننا كثيراً ما نرى امرأة جن جنونها بمن أصبحت له زوجة حتى إذا انقضت فترة من الزمن نراها مضمضمة تحلم بالشرك والضلال . وكثيراً ما نرى رجلاً يهيم بفتاة حتى إذا أصبحت زوجة له عافتها نفسه ، فذهب تائهاً فى المواخير يحصد ما جناه أبواه عليه

من الصعب إن لم نقل من الممتنع أن يعرف حقيقة الحب ووحدته من ولد من زواج لا انسجام فيه ، أن أبناء الكره لا يحبون ، والطفل المولود من شهوة حيوانية حوالة يمتزج كوثر حبه أبداً بنسلين الفحشاء

إن استثمار المرأة المصرية والمرأة العربية بوجه عام فى سبيل الخير إنما يتوقف على إعدادها منبتاً صالحاً للأطفال ، وما نشأت الأمة إلا من منابت أطفالها

إن النبات ينمو على الأسمدة يمتصها فيحولها نسغاً صافياً ، وتلك أزاهر الدمن تنوّر فواحة باسمة فوق أقذارها ، أما الحياة الانسانية فانها إن نبتت على الأقذار فهى أقذار من منابتها

(يتبع) فلكس فارس